

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[168] أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا⁽¹⁾ فلا ينبغي أن تنظري إليه كما ينظر إلى العبيد. يستفاد من سياق الآية أن² عزيز مصر لم يرزق ولدًا وكان في غاية الشوق للولد، وحين وقعت عيناه على هذا الصبي³ الجميل والسعيد تعلق قلبه به ليكون مكان ولده. ثم⁴ يضيف القرآن الكريم (وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض) هذا "التمكين" في الأرض إمّا أن يكون لمجيد يوسف إلى مصر، وخاصة أن خطواته، في محيط مصر مقدّمة لما سيكون عليه من الإقترار والمكانة القصوى، وإمّا أن⁵ه لا قياس، بين هذه الحياة في مصر "العزيز" وبين تلك الحياة في غيبة الجب⁶ والوحدة والوحشة. فأين تلك الشدّة من هذه النعمة والرفاه! ويضيف القرآن أيضًا⁷ (ولنعلمه من تأويل الأحاديث). المراد من "تأويل الأحاديث" - كما أشرنا سابقًا - هو علم تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا حيث كان يوسف قادرًا على أن يطلع على بعض أسرار المستقبل من خلاله، أو المراد منه الوحي لأن⁸ يوسف مع عبوره من المضائق الصعبة والشدائد القاسية ونجاحه في الإختبارات الإلهية في قصر عزيز مصر، نال الجدارة بحمل الرسالة والوحي. ولكن الإحتمال الأوّل أقرب كما يبدو للنظر. ثم⁹ يختتم القرآن هذه الآية بالقول: (وا¹⁰ غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون). إن¹¹ واحدة من مظاهر قدرة الله العجيبة وهيمنته على الأمور كلها أن يدع - في كثير من الموارد - أسباب موفيقه للإنسان ونجاحه بيد أعدائه كما حدث في مسألة يوسف(عليه السلام)، فلو لا خطة إخوته لم يصل إلى الجب¹² أبدًا، ولو لم يصل إلى الجب¹³ لما وصل إلى مصر، ولو لم يصل إلى مصر لما ذهب إلى السجن ولما كان _____ 1 - "المثوى" من مادة (ثوى) ومعناه المقام، ولكن معناه هنا الموقعية والمنزلة والمقام كذلك.